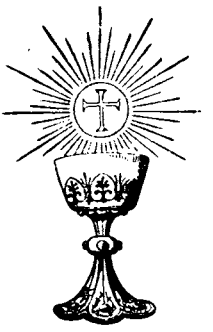

نبذة تاريخية في عيد القربان الطاهر

بقلم الاخ يوسف كليس احد معلمي مدرسة الايتام في بيت لحم

لما كانت مجلة المشرق الغرّاء تُتحف قرّاءها في كل عدد بما يحلو لذوي الذوق السليم رأيت ان اهديهم هذه النبذة لعلّها تحظى في اعين مُطالعيها بالقبول نظرًا لما هي عليهِ من جليل الموضوع واهمّية معرفته لدى الخاصّة والعامّة وهي تنطوي على بحثٍ تاريخيّ لتلك الحفلة الشائقة التي تستدعي العالم المؤمن كلّ عام الى تقديم العبادة بنوع اخص للقربان المقدس نهار الخميس الواقع بعد الاسبوع الاوّل من عيد العنصرة مُستندًا بما تَوخّيتُهُ على اقوال المؤرّخين الجديرة بالتصديق وعلى شهادات الآباء القديسين الذين لم يألوا جهدًا عن الإفاضة في هذا الموضوع. فاقول وبالله التوفيق

١ قدميّة هذا العيد

ان عبادة القربان المقدس هي غاية في القدم باشر بها المؤمنون مُذ رسم السيّد المخلّص لهُ المجد هذا السرّ وذلك امرٌ لا مُشاغبةَ فيهِ نظرًا لوضوحهِ ومحافظة الكنيسة عليهِ حسب ما تسلمتهُ من المخلص ومن رُسله الاطهار تدوينًا وتقليدًا وعلمًا وعملًا كما يتضح من قولهِ تعالى : (لوقا ١٩ : ٢٢) « اصنعوا هذا لذكري » ومن اعمال الرسل حيث يقول القديس لوقا (اعمال ٢٠ : ٧) : « وفي اول الاسبوع لما اجتمعنا نكسر الخبز ». وجاء في هذا السفر ايضًا (٢ : ٤٢) : « ان المؤمنين كانوا مواظبين على تعاليم الرُسل

والشركة في كسر الخبز والصلوات ». وقد اشار الى ذلك رسول الأمم في مواضع جمّة منها قولهُ (١ كورنتس ١١ : ٢٦) : « كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى ان يأتي ». واما التقليد فبيّن ايضاً لان كُتب الآباء في القرون الأولى مشحونة منهُ حتى انك لا تكاد ترى مؤلفاً في هذا الشأن خلت صفحاتهُ من الاسهاب الشافي فيهِ ونكتفي هنا بايراد قول الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين في نيقية : « يجب ان نعتقد ان في المائدة المقدسة حمل الله الذي حمل خطايا العالم مذبوحاً من الكهنة ذبيحة غير دمويَّة ». وقول اغوسطينس في الفصل العشرين من الكتاب السابع في مدينة الله : « ان التقدمة التي يقربها الكاهن في العهد الجديد هي جسد الرب ودمهِ لان هذه الذبيحة نسخت جميع الضحايا التي كانت تُقرّب في العهد القديم »

واما العلم والعمل فظاهر ايضاً لان الكنيسة المقدسة مذ اجيالها الأولى الى يومنا هذا دائبة في المحافظة على هذه العبادة طبقاً لما تسلّمتهُ علماً وعملاً من ايدي الرُسل الاطهار . ويشهد على هذا الاستعمال الجاري على اختلاف انواعهِ عند جميع الطوائف الكاثوليكيَّة وغير الكاثوليكيَّة ايضاً . بيد انَّ العيد السابق الذي كانت تحتفل فيهِ الكنيسة سنويًّا اكراماً لهذا السرّ العظيم واضراماً لمحبة قلوب المؤمنين نحوهُ لم يكن ليتخطَّى قبل الجيل الثالث عشر النهارَ الذي رُسم فيهِ اي يوم خميس الاسرار احد ايام الاسبوع العظيم كما هو شائع عند سائر الملل المسيحيَّة

٢ً الاسباب الداعية لنقل العيد واثباته بامر الاحبار الاعظمين

سمح ربُّ المجد بضَهد الكنيسة وأنبأ بظهور الارطقات بيد انهُ قد وعدها بان ابواب الجحيم لن تقوى عليها لكونه هو بنفسهِ مقيماً فيها كل الأيام وحتى منتهى الدهر . ولذا فانت ترى ان لا حقيقة في الكنيسة ألّا وناصبها الاراطقة ردحاً من الدهر مصوّبين نحوها سهام الكفر والقدح بها . على انَّ الكنيسة لم تكن لتخرج من معمعة كل جهاد ألّا ويدها قابضة على علَم الغلَبة والظفَر

قام برانجر (١ في اواسط القرن الحادي عشر منكرًا وجود جسد المسيح حقيقةً

١) نشأ برانجر (Bérenger) في مدينة طور (Tours) وفيها تلقّى العلوم الابتدائية . ثم

في القربان المقدَّس وهبَّ من بعده الألبيجيُّون (١ في القرن الثاني والثالث عشر فنفثوا بين الملإ سمَّ اضاليلهم في حقيقة هذا السرّ حتى كادت تستولي بها اكثر الاصقاع الاوروبيَّة لو لم تتعقّبهم الكنيسة وتستأصل شأفة تعاليمهم الفاسدة. فعندها توفَّرت افراح المؤمنين بهذه النصرة وشرعوا يحتفلون لعيد القربان المقدَّس بأبّهة وجلال اعظمين

وفي اوائل القرن الثالث عشر أُوحي الى راهبة فاضلة وَرِعة تدعى جوليانا (Julienne) من قرية رتيانا (Rétienne) في ارباض لياج (Liège) من اعمال بلجكة بان تسعى عند الرؤساء الروحيين في تخصيص يوم آخر في السنة عدا الجاري تعييده في الكنيسة مذ نشأتها ليتهيّأ للمؤمنين فيهِ تكريم جسد ودم مخلصنا الاطهرين تكريمًا اسنى وابهى ممَّا كان جاريًا في الكنيسة حتى ذاك العهد. فاخذت هذه الطوباويَّة وقتئذٍ تسعى في إتمام مشيئتهِ تعالى فأعلنت الامر اولًا الى الاب يوحنا لوسان (Jean de Lausanne) قانوني كنيسة القديس مرتينوس في لياج. وهذا بثَّهُ الى يعقوب بانطليون (Jacques Pantaléon) رئيس الشمامسة وغيره من الاشخاص الذين اشتهروا بالفضل والفضيلة. فاستصوب الجميع ذلك وحاز عندهم غاية القبول غير ان نتيجتهُ لم تبرُز حالًا من القوَّة الى الفعل لِما حال دون اماني جوليانا من المعاكسات كما يتصدَّى اعتياديًّا لمثل هذه العظائم في الكنيسة. الَّا انهُ بعد مضيّ عشرين سنة اذن الله بانجاز ارادتهِ تلك بواسطة روبرتوس توروت (Robert de Torote) احد افاضل

سافر الى شارتر (Chartres) وبعد ان اتمَّ فيها دروسه عاد الى طور فاقيم استاذًا في مدرسة القديس مرتينوس. ثم عُيِّن انجر (Angers) حيث رقَّاه أُسقفها اوسابيوس برونوني الى درجة رئيس شمامسة وفيها نفث سمَّ اضاليله ضدّ حقائق الايمان: منها نكرانهُ وجود جسد المسيح حقيقةً في القربان الطاهر. وقد حرمت الكنيسة اضاليلهُ كلها بمجامع خمسة او ستَّة والرأي الاعمّ انهُ تاب اخيرًا عن كفره ومات في شركة الكنيسة

١) الالبيجيُّون (Albigeois) هم اراطقة مانويّون مع بعض اختلاف وتبدُّل قد اتسموا بهذا الاسم نسبةً الى مقاطعتي البي وتولوز حيث بذروا زؤان اضاليلهم وكان اكثر هؤلاء من سكَّان لانغدوك السُفلى (Languedoc) الذين كانوا يتسمَّون قبلًا باسم ألبيجيين وقد حرمتهم الكنيسة في مجمع خصوصي في لومباز (Lombez) سنة ١١٧٦ وفي المجمع اللاتراني الثالث المسكوني سنة ١١٧٩

اساقفة لياج. فهذا بعد ان تحفّى في الامر وفحص عن رغيبة جوليانا الصالحة فكّر في صوابيّة إقامة احتفال شائق لهذا العيد في يوم آخر ليتيسّر للمؤمنين احتفاله بالافراح الكاملة والزِّين البَهجة لان في خميس العهد تكون الكنيسة حادّة على آلام المخلص وموته

ولمّا كانت سنة ١٢٤٦ امر ان يحتفل بهِ في الخميس الثاني الواقع بعد عيد العنصرة وذلك في جميع انحاء ابرشيّته وهكذا كانت تلك الابرشيّة هي البادئة اولًا باحتفال هذا العيد السعيد ومنها استطارت شرارة حبّ هذه العبادة الاحتفاليّة الى كثيرين من أولي الوَرَع والتقوى في ابرشيّات مختلفة الذين رغبوا الى الاكليروس والاساقفة وبواسطتهم الى حكم الكنيسة المقدّسة في تعميم الحفاوة بهذا العيد في العالم الكاثوليكي اجمع. وفي ٨ ايلول سنة ١٢٦٤ اعلن الحبر الاعظم أوربانوس الرابع الجالس حينئذٍ على كرسي بطرس رسالةً بعث بها الى جميع انحاء المعمور يحرّض بها المؤمنين كافّة على الاحتفال بهذا العيد احتفالًا شائقًا في الاجل المذكور واوماً الى القديس توما الاكويني المعلم الملائكي الذي كان وقتئذٍ استاذًا في مدينة اورفيات (Orvietto) ان يؤلف لذلك رتبةً خصوصيّة ففعل وهي تُعَدُّ اليوم آيةً في بابها

وقد اضرمت نيران هذه العبادة قلوب الاحبار الاعظمين فاقبلوا على اعلاء شأنها وتوسيع نطاقها فامر الحبر الروماني اكلمنضوس الخامس في مجمع ڤيانة ان يُعمل بموجب رسالة اوربانس الرابع المذكورة مُحرّضًا الجميع على المباراة في تكريم ذاك العيد تكريمًا فائقًا. وحتم خليفته البابا يوحنّا الثاني والعشرون بان يُجعل هذا العيد من الاعياد الممتازة في الكنيسة فاوجب تلاوة فرضهِ ورتبتهِ مدّة الثمانية الأيام التابعة لهُ على ما هو جارٍ الآن في الكنيسة اللاتينيّة وان يُطاف بالقربان الطاهر في الشوارع. والبابا مرتينوس الخامس قد زاد تلك الحفلة رونقًا فاوجب ان تفرش الاجراس وتُنشد الاغاني الروحيّة بالالحان الشجيّة لدن الطواف بهِ كما يُصنع بالاعياد العظيمة . وفي سنة ١٤٣٣ اصدر البابا اوجانوس الرابع براءة اثبت فيها ما امر بهِ خلفاؤهُ بخصوص ذلك ومنح غفارين عديدة وعظّم الحفلة اكثر تعظيماً اذ امر جميع اساقفة العالم الكاثوليكي ان يغرسوا في قلوب رعاياهم هذه العبادة التي شدّدت ازرها المعجزات الباهرة الصادرة عن هذا السرّ العجيب وقد

اسعدني الحظّ بان اظلّني هذا العيد سنوات متوالية في الديار الفلسطينيّة فشهدتهُ في اورشليم وارباضها وخصوصاً في بيت لحم حيث يجري كل عام احتفال نادر المثال في الميتم الكاثوليكي لحضرة المفضال الاب بلُّوني حيث ترى الوفاً من المؤمنين يرتلون الاناشيد في اللغتين اللاتينيّة والعربيّة آن الطواف بالقربان الطاهر في شوارع هذه البلدة مما يخفق لهُ كل قلب مسيحيّ بحركة حبّ صميم وايمان صادق ثابت لان مؤلف هذه الاناشيد هو القديس توما صاحب رتبة عيد القربان وقد أفرغ قصارى جُهَيداه في ان يكون عملهُ هذا آيلًا لإضرام جذوة المحبة في فؤاد المؤمنين وقد نقل منها الى العربيّة السيد السعيد الذكر البطريرك يوسف اسطفان المديح الذي بدؤهُ « يا لسان المدح » (Pange lingua). ومنهُ جزء يُرتّل في الكنائس اللاتينيّة كل مرّة تُعطى البركة بالقربان الطاهر وبدؤهُ « فلنوقّر سرّ حبّ » (Tantum ergo) فيا لها من معانٍ بديعة تسترقّ العقول وتقتادها صاغرةً لارادة الله العجيبة

٣ في الغفارين الممنوحة لهذا العيد

ما تبلّجت انوار هذا العيد في الكنيسة الّا وقد اقبل الاحبار الاعظمون على خزانة استحقاقات مخلّصنا فافاضوا على المؤمنين سجال النعم الروحيّة لرحض ذنوبهم. منهم البابا أوربانوس الرابع فانّهُ قد منح عدّة غفارين لكل من حضر باصغاء وعبادة تلاوة الفرض الالهي المختصّ بذلك العيد سواء حضرهُ بكليّتهِ ام باقسامهِ. والبابا مرتينوس الخامس قد منح ببراءة اصدرها سنة ١٤٢٩ غفران مئتي يوم لكلّ صلاة سحر ومثلها للقداس الطاهر ومائة يوم لصلاة الغروب وخمسين لكل من الساعات القانونية. وقد ضعّف البابا اوجانوس الرابع ما منحهُ البابا مرتينوس الخامس ببراءة رسوليّة اصدرها في ٢٦ أيّار سنة ١٤٣٣ فعلّق اربعمائة يوم غفرانًا لكل سحر ومثل ذلك للقداس ولصلوات الغروب الاولى والثانية ومائة وستين لكل من الساعات. وقد منح ايضاً غفران مئتي يوم لكل من حضر الطواف الاحتفالي بالقربان. ويمكن ان تقدّم هذه الغفرانات جميعها إسعافاً للانفس المطهريّة حسب براءة بنديكتوس الرابع عشر الصادرة في ١٣ ايلول سنة ١٧٤٩

٤ المكان الذي تمّ فيهِ هذا السرّ

يُنبئنا التقليد وشهادات العلماء الباحثين المحقّقين ان العليّة الصهيونيّة هي الموضع الذي تمّ فيهِ هذا السرّ العظيم وهو نفس المحلّ المعروف اليوم « بالنبي داود » وهو من اورشليم في الجهة الشرقيّة وقديمًا كان يُعرف بكنيسة الاسرار وكنيسة الرُسل لان الرُسل القديسين هم اوّل من قبل فيها الاسرار الالهيّة وفيها مارسوها لاوّل مرّة بعد ان حلّ عليهم فيها الروح القُدُس. وقد ارتأى في القرن الرابع القديس فلبيانوس(١ البابا والقديس قبريانوس وغيرهما من العلماء ان في هذا الموضع عينه علّم السيّد المسيح رُسلهُ منح السرّ التثبيت وهي الكنيسة الاولى نشأت في العالم ولذلك قد دعاها القديس يعقوب اخو الربّ في ليتورجيتهِ أُم سائر الكنائس . قال وهذا نصّهُ :

ممزصّم كب كذه جحُسهُا هُوا وسُكهُا ٥وللا وهما سكف وهمتها وُمحب هبُمتها هُحم وهُحُسبه حمده حكنُهاا وهمُسما حنا وُمحب مُبُمكاُه وُب سكف وهمم هبُمهما اها وهكُم حتاا (٢

وممّا شهد بهِ القديس ابيفان (٣ وهو من آباء القرن الرابع ان ايدي الرومان لم تعبث بهذه العلّيّة على عهد ملكهم طيطُس

وقد لبثت على هيئتها القديمة الى اوائل القرن الرابع ولمّا قدِمت القديسة هيلانة (٤ أُم قسطنطين الكبير شيّدت هناك كنيسةً عُظمى جميلة ذات طبقتين. ثمّ رُممت هذه الكنيسة في القرن الثالث عشر . وذكر المؤرخون انّ هذا البناء الجديد كان مؤلفًا من طبقتين وهما كنيستان سُفلى وعُليا فالأُولى كانت ذات ثلاثة اسواق والثانية كان سقفُها معقودًا بالحجر على شكل قُبّة شامخة ذات حنيّة واحدة كبيرة منمّقة بابدع النقوش والصُوَر الرامزة الى ما كان قد جرى فيها من العظائم

---

١) «Jesus postquam cœnavit cum discipulis suis et lavit eorum pedes chrisma conficere docuit ». Epist. 2 cap. I.

٢) وتعريبهُ: « انّنا نقرّب لك (ايّها الاله) هذه الذبيحة المرهبة الغير الدمويّة لاجل هذه الامكنة المقدسة التي مجدتها بظهور ابنك وخصوصًا لاجل صهيون المقدّسة امّ الكنائس »

٣) راجع Quaresmius T. II, p. 121

٤) Nicéphore et Metaphraste, *voir* Quaresmius T. II, p. 122